الفصل الثانى

البناء الفنى للرواية

تدور أحداث الرواية على وصف وقائع الاضطرابات الطائفية فى بنجلاديش عقب قيام الهندوس المتعصبين فى عام ١٩٩٢م فى الهند بهدم المسجد البابرى بمؤازرة من المسؤولين هناك ومباركة من قوات الشرطة ، التى كانت واقفة تراقب ما يحدث من غير أن تكلف نفسها ولو مجرد التظاهر بأنها حاولت أن تفعل شيئًا تحول به دون وقوع تلك الجريمة الوحشية التى اقترفها أولئك الوثنيون من عُبّاد البقرة الذين لا يكفون عن الاحتكاك بالمسلمين وإنزال أفظع ضروب الإيذاء بهم بغية القضاء عليهم أو على الأقل لترويعهم كى يتركوا الهند خالصة لهم يقدسون فيها البقر كما يشاؤون دون أن يزعجهم نداء التوحيد .

وتقع الرواية فى ثلاثة عشر فصلا يتحدث كل فصل منها عن أحداث يوم من ثلاثة عشر يومًا هى المدة الفاصلة بين بداية الاضطرابات وتقرير أسرة سودهاموى الهندوسية (التى تمثل محور الرواية) الرحيل عن البلاد إلى الهند ، حيث يشكل الهندوس الأغلبية الساحقة .

وتتكون أسرة سودهاموى منه ومن زوجته كيرونمويى وابنه سورنچان وابنته مايا . فأما سودهاموى فكان يشتغل طبيبا ، وكان موفقا فى البداية ، ولكن الأمور لم تظل مواتية كما كانت . ثم سقط مريضًا بالسكتة الدماغية أثناء الاضطرابات ، وإن كانت حالته قد تحسنت بالعلاج والتدريب بعض الشىء قبل أن يعتزموا الرحيل عن البلاد . وهو

رجل علمانى يرفض المعتقدات والعبادات الهندوسية . وأما الزوجة فربة بيت هادئة طيبة مخلصة لزوجها ، الذى كان قد كفّ عن ممارسة واجب الفراش معها ، ومُحبّة لأسرتها متفانية فى خدمة أفرادها ومرضاتهم، فى الوقت الذى لا تكاد ترى لنفسها حقا على أحد منهم . وكانت مايا تشتغل بالتدريس وإعطاء الدروس الخصوصية ، لكن هذا الباب قد سُدّ فى نهاية المطاف . ويبقى سورنجان ، الذى كان عاطلا عن العمل والذى كان يبرر عدم محاولته البحث عن وظيفة يرتزق منها ويخفف العبء بها عن أسرته بأن الوظائف فى بنجلاديش حكر على الشبان المسلمين بحيث يستحيل أن يفوز هو أو أى هندوسى بواحدة منها رغم تفوقهم الكبير عليهم . وهو شاب يسارى ماركسى يجاهر بأفكاره الإلحادية ويرى تنحية الدين عن الحياة تمامًا وتحويل المساجد وغيرها من المؤسسات الدينية إلى مدارس ومستشفيات وملاجئ ومعاهد فنية ، ويبدى ضيقه الشديد من عدم حذف « بسم الله » من ديباجة الدستور البنجلاديشى ، ومن النص فيه على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وتغطية الشيخة حسينة زعيمة رابطة عوامى شعرها بعد عودتها من تأدية فريضة الحج ، واهتمامها بمسلمى الهند وما يتعرضون له من تضييق وتنكيل على أيدى الهنادكة المتهوسين .

وترتبط أسرة سورنجان بوشائج طيبة مع عدد من الأسر المسلمة ، التى كانت تقوم بحمايتهم كلما حدثت اضطرابات طائفية فى البلاد .

ومع هذا فقد كان سورنچان يضمر فى أعماقه الريبة فى هؤلاء الأصدقاء المسلمين والسخط عليهم ، ولا يتورع عن أن يصف المسلمين فى بنجلاديش عموماً بالأميين [١] والخنازير [٢] .

وتتابع الرواية أحداث الاضطرابات الطائفية فى بنجلاديش ، ودكّا على وجه الخصوص ، مع التركيز على أسرة سورنچان ، التى لا يحدث لها شيء على الإطلاق سوى أن مايا خُطِفتْ فى سادس يوم من الأيام الثلاثة عشر . واللافت للنظر أننا لا نعلم بشيء من تلك الأحداث إلا عن طريق المناقشات التى كانت تدور بين سورنچان أو أبيه وأصدقائهما، وكذلك التقارير والإحصاءات الصحفية . أى أننا لا نرى بأعيننا ما تدعى الرواية وقوعه من حوادث عنف وقهر واضطهاد وسلب ونهب على هندوس بنجلاديش من جانب المسلمين بل نسمع بها مجرد سماع ، رغم أنها تُعَدّ بالمئات بل بالآلاف كما جاء فى الرواية مرارا . وهذا هو السبب فى أن الرواية تفتقد الحرارة اللازمة لكسب تعاطف القارئ . وقد كانت الرواية ، كما ذكر الأستاذ المترجم فى مقدمته لها، تخلو فى طبعتها الأولى من هذه الإحصاءات وكذلك من النصوص

---

(١) « illiterates » . وقد ترجمها عصام زكريا بـ « الجهلة » (ص ١٢٤ ـ Taslima Nasrin , Lajja , Penguin Books , P. 104) .

(٢) « swine » . وقد ترجمها عصام زكريا إلى « الحقارة » كما أشرنا فى موضعه من الفصل التالى .

التى تدعى الكاتبة أنها نقلتها عن الكتب والصحف ومواد الدستور البنجلاديشى ... إلخ ، حتى إنها لم تكن تتجاوز فى الأصل سبعين صفحة . وهذا يعنى أن الرواية فى حد ذاتها عاجزة عن إقناع القارئ بصدق ما تريد الكاتبة أن تدخله فى روع القراء ، إذ إن أفراد أسرة سورنچان ، وهم يملأون ساحة الرواية كلها تقريبا ، كانوا يعيشون فى أمان تام فى عزّ المظاهرات والاضطرابات والاضطهادات الموجهة ضد الهندوس كما تقول الرواية ، وإن جاءت الكاتبة عند هدوء هذه الاضطرابات فجعلت بعض الشبان المسلمين يقتحمون بيت سورنچان فى غيابه ويخطفون أخته ويفرون بها دون أن يستطيع الوالدان أن يدفعا عنها شيئا . وهو حدث مُقْحَم إقحامًا ، فقد تكرر خروج مايا فى معمعان القلاقل دون أن يقع لها أى شىء . كما كان معروفا أن أسرتها هندوسية ، فما الذى منع المسلمين طوال هذا الوقت من أن يخطفوها ؟ كذلك فإن سورنچان كان يخرج كل يوم دون أية مبالاة رغم تفجر الجوّ من حوله ، ويظل يدور فى أرجاء المدينة هنا وهناك إلى وقت متأخر من الليل دون أن يصيبه أذى . وكان يناقش أصدقاءه الهندوس فى الشارع فى أحوال طائفتهم وينتقد الأوضاع فى بنجلاديش دون خوف . وكثيرا ما جلس فى شرفة الدار فى اطمئنان وحرية كاملين ، مع أن الرواية تقول إن الهندوس كانوا يتحاشون بكل استطاعتهم الظهور أمام الجماهير المسلمة الهائجة .

وهنا لا بد من أن نتساءل : متى وأين أضافت الكاتبة إلى روايتها الصفحات التى جعلتها تزيد عن حجمها الأصلى مرتين ؟ هل تمّ ذلك فى الغرب عندما رُؤى أن تُتَرْجَم إلى بعض اللغات الأوروبية كما أتصور؟ إن أهمية هذا السؤال تكمن فى أن الطبعة الأولى تخلو ، فى ظنى، من الأرقام الهائلة الخاصة بالمنازل التى دُمّرت والمعابد التى أُحْرقت والرجال والأولاد الذين ضُربوا أو قُتلوا والنساء والفتيات اللائى تعرضن للاغتصاب . فلو صحّ ، كما يغلب على تصورى ، أن المؤلفة قد قامت بإضافة الصفحات المذكورة بعد أن تركت بنجلاديش فمعنى ذلك أنها حين كانت لا تزال فى بلدها وبين مواطنيها لم تذكر هذه الإحصاءات المخيفة ، وعندما ذهبت إلى أوروبا أدخلتها فى روايتها . فلماذا ؟ هل لأنها تعرف أنها لو كانت ذكرتها فى الطبعة الأولى التى صدرت فى بنجلاديش لاستطاع الناس تكذيبها فى وجهها ، أما فى الخارج حيث الجوّ المعادى للإسلام والمسلمين فإن أحداً لن يفكر فى مراجعتها فيما تقول ؟ هذا مجرد سؤال أتركه لمن يستطيع الإجابة عليه عن طريق المقارنة بين النص البنغالى للرواية وترجمتها الإنجليزية مثلا .

إن الأستاذ رجاء النقاش يمدح رواية « العار » بحرارة فائقة ويدافع عن كثرة ما فيها من وثائق ونقولٍ من الصحف والكتب بأن هذه هى سمة « الرواية التسجيلية » ، قائلا : « إن هذا النوع من الروايات الوثائقية أصبح ضرورة فنية كبرى فى حياتنا المعاصرة ، فالقضايا التى

تمس الإنسان وتهدد حياته وأمنه وسعادته أصبحت كثيرة ومعقدة ، والفنان صاحب الضمير لا يجد مفرا من أن يتحول إلى « مقاتل » بفنه وقلمه ضد كل ما يصيب الإنسان بالمهانة والمجاعة والخطر . والواقع اليومى فى هذا المجال أصبح أقوى من أى خيال . ولذلك فالفنانون الغاضبون من أجل الإنسانية يرفعون راية هذا الواقع قبل أن يعتمدوا على خيالهم ، وهم يستخدمون مواهبهم فى تشكيل المادة الواقعية داخل أعمالهم الفنية ليوقظوا الضمائر ويوجهوا أصحاب الأفكار المدمرة التى تريد أن تغطى المصالح الخاصة بعباءة الدين أو بأى عباءة أخرى لأى فكرة سامية »[1] . ولا اعتراض لنا على ما قاله الأستاذ النقاش عن « الرواية التسجيلية » أو « الوثائقية » . فلتكن الرواية ما تكون . المهم ألا تستحيل هيكلا عظميا هامدا ، بل لا بد أن تكون جسماً حيًا مملوءا حركة وحيوية وجاذبية . وهو ما لم يتحقق للأسف لرواية تسليمة نسرين ، التى تقول المناقشات والإحصاءات والنصوص المقحمة فيها شيئاً ، وتقول أحداثها التى تقع تحت أعيننا وشخصياتها التى تتحرك أمامنا شيئا آخر .

وفوق ذلك فإن الرواية تعانى من كثير من الأشياء غير الواقعية . فعلى سبيل المثال تحاول المؤلفة أن توهمنا أن سورنچان لم يكن يعرف ، وهو تلميذ بمدرسة القرية التى وُلد فيها ، معنى كلمة « هندوسى » ،

(١) من مقال « الغاضبة » بالصفحة العشرين من صحيفة « الأهرام » / ٢٤ يونيه ١٩٩٦م .

متصورا أنها مجرد سباب ، مثل كلمة « كلب » أو «خنزير »[١] . فهل يمكن أن يدخل فى عقل أحد أن تلميذا يجهل اسم ديانته والطائفة التى ينتمى إليها ؟ إن هذا هو المستحيل بعينه ، وبخاصة إذا كان هذا الطفل ينتمى إلى أقلية دينية حيث تبلغ الحساسية فى هذه المسألة مدى جدّ بعيد .

كذلك فإن حوادث اغتصاب البنات الهندوسيات على يد المسلمين تبدو عسيرة على الفهم والإقناع ، إذ لم يُعْرَف عن المسلمين فى أى مجتمع يشكلون فيه الأغلبية هذا الأمرُ الذى اشتهر به الأوروبيون والصهاينة والوثنيون فى مجاهل إفريقية ، والذى تَدّعى المؤلفة فى روايتها أنه يشكّل ظاهرة بارزة فى بنجلاديش ، وبالذات أيام الأزمات الطائفية . إن تقاليد المسلمين تمنع من هذا منعًا شديداً . وإذا أُضيف إلى ذلك أنهم فى العصر الحديث يجسّدون بوجه عام الضعف والهوان كان من الصعب الشديد الصعوبة أن نصدق هذا الذى تقوله الرواية فى ذلك الموضوع . وقد سألت صديقا لى اشتغل فترة طويلة فى الهند وباكستان عن ذلك الأمر فأكد لى ما قلته هنا تمامًا . إن محاولة تلطيخ سمعة المسلمين من هذه الناحية هى محاولة مقضى عليها بالفشل ، لأنها تصادم المنطق والواقع ولا تقنع أحداً . وفضلا عن ذلك فإنها عيب فنى

---

(١) ص / ٥٦ .

فى الرواية ينال من قيمتها ويجعلها عديمة التأثير أو فاترته على أضعف تقدير .

كذلك هل يعقل أنه ، فى الوقت الذى تقول فيه الرواية إن سورنچان كان مهدّدا بالقتل وهو يجوب الشوارع فى فترة الغليان الطائفى وحوادث الاعتداء المتصلة على الهندوس وبيوتهم ومعابدهم ومحلاتهم وممتلكاتهم ، كان كل ما فكر فيه هو « أن يلعب الكرة ويتناول الفواكه [١] أو يركّب الأخشاب ويلعب الكريكيت » ، وذلك بغية استعادة طفولته ، أو يكون كل ما يرغب فيه ، عندما كان يسمع وهو فى الشارع قائمة الكوارث التى أوقعها المسلمون المتعصبون بأبناء طائفته ، « هو ركل الأحجار فى طريقه كما اعتاد أن يفعل خلال طفولته » ؟ [٢] إن هذا يشبه ما يفعله أنور وجدى فى أحد الأفلام حين يضع يده بطريقة متلصصة فى جيبه حيث كان جالسًا وسط مجموعة من الناس يشاهدون امرأة له علاقة بها تغنّى ، وقد بدت فى عينيه نظرة مريبة . ونتوقع نحن المشاهدين أن يخرج من جيبه مسدسًا ويطلق الرصاص على المغنية . ولكننا نفاجأ به يُخْرج بنفس الطريقة المتلصصة منديلا يمسح به عرقه . وهو ما يذكرنا بالمثل القائل :

---

(١) هذا ما جاء فى الترجمة ، وهو خطأ ، والصواب هو أنه ودّ لو يستطيع أن يلعب كرة القدم بثمرة من ثمار فاكهة الجمبورا لا أن يأكل الفواكه (P. 28).

(٢) ص ٥٩ ، ٦٢ .

« تمخض الجبل فولد فأرا » !

كذلك هل يُعْقَل أن يقوم أحد فى الثانية صباحا بالإعداد لمظاهرة من المظاهرات ؟ [١] إن هذه أول مرة نسمع فيها بتظاهرة تُرتّبُ والناس نيام ! فهذا شىء غير واقعى بالمرة .

وفى منتصف الرواية نجد مايا تبدى استغرابها وضيقها من مشاركة الأطفال الهندوس فى تلاوة « الفاتحة » فى طابور الصباح بالمدرسة وعدم مراعاة المسؤولين عن التعليم وضع صلوات من مختلف الأديان لتلاوتها مع « هذه السورة » [٢] . ووجه الغرابة فى ذلك أن مايا كانت تحب شابا مسلما وتتوق إلى الزواج منه ، ولا تجد مانعا أن تنطق بالشهادتين وتصبح مسلمة وتغير اسمها الهندوسى ، بل إنها ذهبت وعاشت لبعض الوقت مع أسرة مسلمة كأنها واحدة منهم [٣] . فكيف بعد ذلك كله تنفر من « الفاتحة » هذا النفور الشديد ؟

ومما لا يمكن أيضا ابتلاعه أن زملاء سورنجان يأتون إليه ، ويجلسون معه وقتا طويلا وسط حطام الحجرة التى دمرها مختطفو أخته، ويتناقشون معه فى موضوعات شتى ، وكل هذا دون أن يلاحظ أحدهم

---

(١) ص / ١٠٤ . وهى مظاهرة كان يعدها شبان مسلمون ضد الهندوس .

(٢) ص / ١١٨ ـ ١١٩ .

(٣) انظر ص / ٤١ ـ ٤٣ .

ما أصاب الحجرة من تحطيم وتخريب أو يعلق عليه بشيء ، ثم يأتى بعد ذلك صديقه بولوك ويكون هو الوحيد الذى يتنبه لهذا ، وإن ظن أن سورنچان هو الذى كسّر الأثاث فى لحظة غضب [١] . وغير واقعى ألا يلاحظ الجالسون فى الحجرة التخريب الذى لم يترك شيئا فيها على حاله ، وغير واقعى أيضا ألا يخطر لبولوك من أسباب هذا التخريب إلا أن سورنچان هو الذى فعل ذلك فى نوبة غضب ، ولا يفد على ذهنه أن يكون المتعصبون المسلمون هم الذين أحدثوا هذا ، مع أنه هو السبب الذى كان لا بد أن يخطر فى ذهنه للوهلة الأولى . ألم تنسب الرواية للمسلمين كل الشرور التى فى الدنيا ؟ فكيف فاته ذلك ؟ إن هذا ينافى الواقعية منافاة شديدة !

على أن هذا كله يهون بجانب ماهو آت ، إذ حينما سمع أهل مايا بعد اختطافها بعدة أيام أن جثة فتاة تشبهها قد عُثِر عليها طافية تحت أحد جسور دكا نراهم يقررون عدم الذهاب للتحقق من صاحبة الجثة . والسبب ؟ السبب هو أنهم يريدون ألا يفقدوا الأمل فى عودتها يومًا ، بخلاف ما لو ذهبوا ووجدوا أن الجثة هى فعلا لابنتهم ، إذ لن يكون أمامهم عندئذ إلا اليأس، وهو ما لا يطيقونه ! ترى هل يمكن لأى عقل أن يهضم هذا التصرف الذى هو العَتَه بعينه ؟ لكن ذلك ليس

---

(١) انظر ص / ١٧٥ . وانظر أيضا ص / ١٨٨ ـ ١٨٩ .

نهاية هذه المسرحية العبثية ، إذ لا يمر إلا يوم واحد ، هو اليوم الأخير فى الرواية ، وتقرر الأسرة الرحيل عن بنجلاديش إلى الهند ، طبعًا دون مايا بل دون التفكير فى شأنها ، وكأنها ورقة نقدية من فئة العشر تكّات ضاعت من صاحبها فشغلته دقائق ثم نسيها ومضى فى سبيله خفيف البال ناعم الضمير ! أيمكن أن ينسى والدان فلذة من فلذات أكبادهما بمثل هذه البساطة ويرحلا عن بلدهما إلى غير رجعة دون أن يعرفا مصير ابنتهما ؟

وإلى جانب العيبين السابقين هناك عيب ثالث لا يقلّ عنهما فداحة . ألا وهو التناقض . فالرواية تقوم على أن الدين غير صالح لتكوين الأمم . وقد تكررت هذه الفكرة فى عدة مواضع منها ، بدءاً من صفحاتها الأولى ، حيث تقتبس المؤلفة نقولا من مولانا أبو الكلام أزاد ومحمد على جناح واللورد ماونتباتن تؤكد ماتريد أن تقوله فى هذا الموضوع [١] . لكن أحداث الرواية من أولها إلى آخرها تجرى فى عكس هذا الاتجاه تمامًا ، إذ تصوّر المسلمين فى بنجلاديش على أنهم وحوش مفترسة تتلذذ بأكل لحوم الهندوس [٢] ، وأصحاب قلوب

---

(١) انظر ص / ٢٧ .

(٢) إحدى المظاهرات الإسلامية ضد الهندوس كانت تهتف : « دعونا نمسك بهندوسى أو اثنين . لنأكلهم فى الصباح وفى المساء أيضًا » (ص / ٤٦) ، وكأن المسلمين هم بعض أولئك الوثنيين الذين كانوا يعيشون فى مجاهل غابات إفريقيا قديماً ويأكلون لحوم البشر !

صخرية ضَرِيَتْ على تهديم المعابد وإحراق البيوت والمحلات واغتصاب النساء والفتيات ... إلخ . إن هذا التناقض يضرب الرواية فى الصميم ويجعلها كأن لم تكن ، فهذا هو اختلاف الدين بين المسلمين والهندوس فى بنجلاديش يجعل الوحدة الوطنية بين الطائفتين مستحيلة أو تكاد ، على حسب ما تقول الرواية . فما العمل ؟ ولا يقل أحد إنها لا تتهم بالطائفية الا الجماعات الإسلامية وحدها ، فقد هاجمت أيضا المسلمين العلمانيين والليبراليين ووصفتهم بالتعصب والطائفية ، واتهمت المسؤولين فى الأحزاب السياسية المختلفة بالاشتراك فى اضطهاد الهندوس لإجبارهم على الهجرة إلى الهند . ولم ينج من ذلك حتى الذين كانوا يتعاطفون بقوة مع الهندوس ، إذ قال عنهم سورنچان (بطل الرواية والمعبّر عن آراء الكاتبة) إنهم يقتلون الهندوس بالليل ويتظاهرون بالشفقة عليهم نهارا ، كما أنكر على الشيخة حسينة اهتمامها بمصير المسلمين الهنود ، واتهمها بأنها تطعم الشعب البنجلاديشى مشاعر العداء للهند والولاء للإسلام [١] .

وتقول الرواية فى هذا الصدد أيضا (على لسان سورنچان المتحدث باسم المؤلفة كما بيّنّا) إن « الدين (فى بنجلاديش) يفرض نفسه

---

(١) انظر ص / ١٢٧ ، ١٣١ ـ ١٣٢ ، ١٨٣ .

بقوة على المناخ الاجتماعى ، ومن الصعب على شعوب العالم الثالث الفقيرة والضعيفة والمعذبة أن تهرب من قبضته الحديدية » ، ثم تسوق ما قاله ماركس فى هذا الموضوع من أن « المشاكل التى تتعلق بالدين هى فى الحقيقة تجلّ لأوجه النقص العملية واعتراض عليها أيضا . الدين هو تنهيدة المعذب والمضطهد ، قلب هذا العالم الذى لا قلب له ، وروح المجتمع الذى لا روح له . الدين هو أفيون الشعوب » [1] . فهل هذا صحيح ؟ هل صحيح أن الدين لا يجد مرتعا له إلا فى المجتمعات المتخلفة ، وأن الدول المتقدمة لا تربطها بالدين أية وشيجة ؟

لقد دخل مثلا فى دين محمد ﷺ بمكةَ الفقراءُ والأغنياء ، وعند تأسيس دولة المدينة ازداد المسلمون تمسكا بدينهم ، وكذلك عند توسع دولتهم وتحولها إلى إمبراطورية تمتد من الصين إلى المحيط الأطلسى ، وظل الحال هكذا حتى مشارف العصر الحديث . وهى فترة شهدت ازدهاراً هائلا للمسلمين عقَبَهُ ركود وانحطاط ، مما يعنى أنهم فى تقدمهم وتخلفهم على السواء كانوا مستمسكين بدينهم وينظّمون شؤون حياتهم على أساس منه . وها هى ذى أمريكا قد قطعت فى التقدم والغنى أشواطاً لم تكن تدور فى خيال أحد من قبل ولا حتى فى المنام والأحلام . ومع ذلك فإن مشاعر العداء هى التى توجه موقفها حيال المسلمين ، وهى مشاعر دينية فى المقام الأول . ولا تنفرد أمريكا بهذا بل تَشْرَكها فيه دول أوروبا . وما موقف الغرب من مسلمى البوسنة

(١) ص / ١٤٨ .

والهرسك منا ببعيد ! ليس ذلك فقط ، فهناك الصراع داخل المملكة المتحدة بين الأيرلنديين وبقية البريطانيين ، وهو صراع دينى . لا بل صراع مذهبى ، وهو أضيق أنواع الصراعات الدينية . أليس هو صراعًا بين البروتستانت والكاثوليك ، وكل من الفريقين ينتمى إلى النصرانية ؟ ولماذا نذهب بعيدا ؟ إن إسرائيل جارتنا قد قامت على أساس دينى . فهل يمكن أن تُعَدّ إسرائيل ضمن الدول المتخلفة ، وهى فى عمومها دولة أوروبية زُرِعت زرعا فى قلب العالم العربى والإسلامى ؟ وهل كوبا، التى نبذت الدين واعتنقت الماركسية ومازالت تقبض عليها بأصابع متشنجة ، يمكن أن تصنَّف ضمن الدول المتقدمة الغنية ؟ إنها فى الساقة من صفوف دول العالم المتخلفة .

ثم إن الإسلام لايمكن أن يكون أفيونا للشعوب ، لأن الأفيون ليس إلا مخدرا يشلّ فاعلية الإنسان ومنفذاً يهرب عبره من واقعه المحبط دون أن يغير فيه شيئا ، أما الإسلام فهو بلسم للقلب يحصنه ضد اليأس ويساعده على الصبر والصمود إلى حين انقشاع الظلمات المدلهمة . وهو صرخة فى وجه الظلم والاستبداد والفقر والتخلف والاستعمار والجهل والتفرق والتواكل والعجز . والذين يفهمون الإسلام على عكس هذا هم المخطئون . يستوى فى ذلك المنضوون تحت لوائه والخارجون عليه والمعادون له من أتباع الديانات والمذاهب الأخرى .

هذا ، ولا ندرى سرّ اعتراض سورنچان (وهو أداة المؤلفة فى التعبير عن أفكارها ومواقفها) على إضافة مسلمى بنجلاديش كلمة « بسم الله » إلى الدستور فى سنة ١٩٧٨م وإعلان الإسلام دينا قوميا للدولة [١] . إن هذين المطلبين لم تفرضهما بالقوة سلطة علوية ، بل طالبت بهما حركتان شعبيتان كما يقول هو نفسه ؟ فما وجه الخطإ إذن ؟ أليست هذه هى الديمقراطية ، التى يصرخ معظم شعوب العالم الثالث من نار الحرمان منها ؟

لكن الرواية ، للأسف والعار ، لا تبالى بالديمقراطية والحرية بالةً ما دام الأذى يمس المسلمين . وهذا واضح فى ابتهاجها بمنع الحكومة الجزائرية « الأصوليين » (كما تسميهم) من الوصول الى السلطة رغم نجاحهم الساحق فى الانتخابات التى نظمتها تلك الحكومة نفسها. وكذلك هو واضح فى أساها على عدم قمع الحكومة البنجلاديشية للجماعات الإسلامية ، التى تسميها بـ « الجماعات الأصولية والفاشية »[٢] . إن كاتب هذه السطور لا ينتمى لأى حزب سياسى أو أية جماعة دينية ، ومع ذلك فلا بد من احترام إرادة الشعوب حتى لو اختارت أن يحكمها الشيطان ، أما القمع فهو سلاح العاجزين

---

(١) انظر ص / ٨١ .

(٢) انظر ص / ١٨٥ .

الذين يبغون فرض رأيهم بالقوة الغشوم رغم أنف الشعوب .

وهناك عيب آخر يسيء إلى بنية الرواية إساءة شديدة ، إذ يصطدم القارئ بين الحين والحين أثناء متابعته لأحداثها بوقائع تبرز أمامه فجأة دون مقدمات تمهّد لها من قبل عند تعرض الكاتبة للفترة التاريخية التى وقعت فيها هذه الأحداث بحيث لا يشعر باستغراب ودهشة حينما تذكر الرواية بعد ذلك أنها حدثت . فعلى سبيل المثال يفاجأ القارئ فى الصفحة السبعين بالمؤلفة تتحدث عن تخفى سودهاموى طوال السنوات السبع السابقة على انفصال بنجلاديش فى سنة ١٩٧١ م عن باكستان فى كوخ من البوص تحت اسم إسلامى مستعار هو وزوجته ، وتَذْكُر أنه قضى وقتاً طويلا فى معسكرات الاعتقال التى كان الباكستانيون يضعون فيها المطالبين بالانفصال من أبناء باكستان الشرقية (التى سميت بعد ذلك « بنجلاديش ») . ومبعث الغرابة فى الأمر أن الرواية قد تحدثت قبل ذلك عن هذه الفترة نفسها فى حياة سودهاموى وأسرته ، وليس فى الكلام ما يشير إلى اعتقال أو مطاردات وتَخَفٍّ فى الأكواخ ، بل على العكس من ذلك يُفْهَم منه أنه كان يعيش فى منزله ويمارس عمله كطبيب ، وأن كل ما كان يمارسه من نشاط سياسى لا يتعدى الاشتراك فى المظاهرات [١] .

---

(١) ص / ٣٦ ـ ٤٠ .

وفى الفصل الثالث من الرواية يأخذ سورنچان فى استرجاع حياته الماضية ويصل إلى أحداث اليوم السابق ، وهو ثانى أيام الرواية الثلاثة عشر ، وإذا بنا نفاجأ بأن أبناء الجيران كانوا يطاردونه فى الشارع فى ذلك اليوم صائحين : « أمسكوه ! أمسكوه ! » [١] ، مع أن الفصل الثانى قد حكى أحداث اليوم المذكور بالتفصيل ولم يرد فيه من بعيد أو قريب أن شيئا من هذا قد وقع .

وبالمثل نقرأ فى الفصل التاسع أن سورنچان كان كلما خرج من بيته يسمع شتائم بذيئة له ولأبناء طائفته جميعا [٢] ، مع أن أحداث الأيام الثلاثة عشر ، وبخاصة ما يتعلق منها بخروجه من البيت وتطوافه فى شوارع المدينة ، مذكورة بتفصيل شديد ، وليس فيها أن أحداً كان يتعرض له بأذى .

إن هذه الأشياء تصيب بناء الرواية بالتفكك والخلل . وهى تدل على أن المؤلفة لم تحكم تخطيط عملها ، بل ربما لم تصمم له تخطيطا أصلا وتركت قلمها يجرى فوق الورق على هواه . وليس هذا من الفن فى شىء ، فليس الفن هو تحبير الورق والسلام ، وليست القصة مقالا أو دراسة لا يهمنا منها سوى الفكرة والعرض الواضح

---

(١) ص / ٨٣ .

(٢) ص / ١٨٨ .

واللغة السليمة ، بل هى عمل فنى له أصوله ومقتضياته . وواضح أن قلم تسليمة نسرين ليس ضليعا فى تقنية القصّ وأنه يجهل الفرق بين البيانات السياسية والمنشورات التحريضية وبين كتابة القصص والروايات .

ومما يعيب الرواية أيضًا خلوّها من وصف البيوت والشوارع والأسواق والمحلات ودور العبادة ، والسماء والأنهار والقوارب ، والناس والأزياء ، والحافلات والسيارات والدراجات . إن الرواية بهذا الشكل تبدو وكأنها قائمة وسط الفراغ : لا حسّ ولا حركة ولا رائحة ولا لون ولا شيء . إن مما يميز الفنان رهافة حواسّه واهتزازها لأقل شيء حوله . أما تسليمة نسرين فكأنما قد حيل بين جوارحها وبين الأشياء . إن جانبا كبيرا من عبقرية نجيب محفوظ القصصية مثلا تكمن فى لوحاته الوصفية التى تنتفض بالحياة والحركة فى معظم رواياته ، وذلك على عكس بعض روايات الفترة الأخيرة ، مثل « رحلة ابن فطومة » ، التى نفتقد فيها إلى حد كبير هذه اللوحات . إننا إذ نتجول معه فى دار الحلبة مثلا (وهى إحدى البلاد التى زارها قنديل بطل هذه الرواية) لا نرى سيارات ولا قطارات أنفاق بل كثرةً من الهوادج الذاهبة والآئبة . وهو حين يصف الشوارع والمبانى والفنادق يسوق كلاما موجزا عاما كأنه يكتب كتابا فى الجغرافيا . وعندما يسمع قنديل أذان المسجد نجده

يسير على هديه حتى يجد مسجدا فيدخل ويتوضأ ويقف فى الصفّ ويصلى الظهر فى فرحة متوهجة بعين دامعة وصدر منشرح ، وكل ذلك دون أن يأتى ذكر لأى أناس سواء كانوا فى طريقهم إلى المسجد أو كانوا يتوضأون أو يخلعون نعالهم ليدخلوا الجامع . وإنما تأتى الإشارة إلى الناس بعد هذا كله على نحو خاطف كالبرق ، إذ يقول : « تمت الصلاة ، ومضى الناس ينصرفون ، ولكنى تسمرت فى مكانى حتى لم يبق فى الجامع إلا الإمام وأنا » .

أين الأصوات ؟ أين الألوان ؟ أين حركة الناس ؟ أين وصف المسجد وقبته ومئذنته فى وسط هذا المحيط الغريب ؟ إن الإنسان ليحس كما لو كان يتجول فى مدينة مسّتْها عصا ساحر فحولت البشر فيها وكل شئ حىّ إلى صخر ساكن [1] . وهذا وأكثر منه يصدق على رواية تسليمة نسرين . وإذا كان لنجيب محفوظ بعض العذر لأن « رحلة ابن فطومة » هى رواية فكرية رمزية ، والبيئات التى تجرى فيها الأحداث بيئات تنتمى إلى عصور تاريخية قديمة ، فما عذر الكاتبة البنجلاديشية ؟

لقد ذهبت مايا مثلا إلى كلكتا بالهند فى زيارة لبعض الأقارب

(١) بشىء من التصرف عن كتابى « فصول من النقد القصصى » / ١٩٨٧ م / ٢١٢ - ٢١٣ .

هناك ، وكان ذلك أيام عيد البوجاس الهندوسى . وقد كانت هذه فرصة لا بد من اهتبالها لوصف مظاهر الاحتفال بهذا العيد فى الشوارع والبيوت وانعكاس ذلك على مظاهر الحياة ونفوس الأطفال ... إلخ . إلا أن كل ماقالته الكاتبة فى هذه المناسبة هو : « كلكتا خلال البوجاس تمتلئ دائما بالأضواء والمرح والتسلية » [١] . لكن ، يا مؤلفتنا العزيزة ، ليست كلكتا هى وحدها التى تفعل ذلك فى العيد ، فكل المدن فى جميع بلاد العالم تفعل هذا فى سائر المناسبات والأعياد . فأين الخصوصية التى تميز عيدا عن عيد وبلدا عن بلد؟

وفى الصفحة السادسة والأربعين بعد المائة يتمشى سورنچان فى شوارع دكا القديمة . ونقرأ ونقرأ ونقرأ ، ونقلب الصفحات صفحة بعد أخرى فلا نجد وصفا لهذه الشوارع التى كان يجوس خلالها بطل الرواية ، اللهم إلا هذه الجملة : « فى دكا القديمة لا حظ سورنچان أن محلات الهندوس لاتزال مغلقة » [٢] ، وكذلك هذه الجملة : « المدينة من حوله تمتلئ بأناس يمشون ، كلٌ إلى طريقه نحو هدفه » [٣] ، ثم هذه العبارة : « توقف عند أحد المحلات واشترى سيجارة « بانجلا فايف » . وصل الى تقاطع كاكريل واستأجر عربة

(١) ص / ١١٦ .

(٢) ص / ١٤٧ .

(٣) نفس الصفحة .

ريكشا . هذه الأيام ... تنام المدينة مبكرا مثل رجل مريض »[١] . وهذا كل ما هنالك، وهو ما يصدق على سائر الرواية .

وأخيرا وليس آخرا فإن الرواية تأخذ جانب الهندوس على طول الخط وتنحاز اليهم انحيازا مطلقا وتصورهم ملائكة وادعين وأطهارا مبرئين من جميع النقائص والعيوب ، أما المسلمون فقد جُرِّدوا من كل فضيلة وأُبرِزوا فى هيئة ناس متوحشين ذوى مشاعر متحجرة وأذواق فاسدة وعقول غبية متخلفة . إن سودهاموى ، كما جاء فى الرواية ، طبيب واسع الأفق ، إنسانى النزعة ، لايعرف التعصب بل يسمو بفكره وعواطفه فوق حدود الأديان . وهو وادع النفس ، صبور على الأذى ، يحاول أن يلتمس العذر للمسلمين المتوحشين ما وسعه ذلك ، ولا يعرف الحقد ولا الشر إلى قلبه سبيلا . وزوجته كيرونمويى حمامة وديعة مستكينة ، تتفانى فى خدمة أسرتها ومرضاتهم ، وقلما تفكّر فى نفسها أو تطلب من زوجها ماتطلبه النساء من فساتين وأحذية وحليّ . حتى عندما أصاب زوجَها العجزُ الجنسى تقبلت الأمر فى هدوء ورضا ولم تعد تهتم بهذا الجانب وكأنها قد استحالت مخلوقا أثيريا لا يعرف نزعات اللحم والدم [٢] . أما سورنچان فهو شاب واسع الثقافة عميقها ،

(١) ص / ١٥٣ .

(٢) قارن ببارفين ، الفتاة المسلمة التى كان يحبها سورنچان ويريد أن يتزوجها فتذكّره بأنها لا يمكن أن تتزوج منه إلا إذا أسلم ، لكنه يرفض ذلك فتتزوج من رجل أعمال مسلم =

رحيب الاهتمامات ، يكرّس وقته وحياته للعمل السياسى خدمة لجموع الفقراء من مسلمين وهندوس . وقد أنهى دراسته متفوقا على زملائه المسلمين ، ومع ذلك فقد حُرِم من الوظيفة فى الوقت الذى حصلوا هم عليها رغم نجاحهم بالغشّ وتدنى تقديراتهم .

حتى المناسبات والتقاليد الهندوسية والملابس والزينة التى تتزين بها النساء الهندوسيات نجد الكاتبة تشير اليها بتعاطف وحبّ شديد يخيل للقارئ الذى لا يعرف تسليمة نسرين أنها هندوسية [١] . أما الطاقية التى يلبسها كثير من المسلمين فى بنجلاديش فترتبط فى الرواية بالتدمير والإحراق والقتل والاغتصاب [٢] . وعندما تأتى إحدى النساء المسلمات من صديقات كيرونمويى لتزورها هى وزوجها فى ذروة محنتهما بعد

= أتى به والداها . ولا يمر عامان حتى تصبح حياتها مع زوجها جحيما لا يحتمل ، ويوشك أن يقع الطلاق (ص / ١٢١ ـ ١٢٤) . ويحس سورنجان بشماتة كبيرة فيها وفى أهلها لأنها لم تتزوجه وتزوجت واحداً من أبناء دينها . وهى وقاحة منه ومن مؤلفة الرواية ، التى من الواضح أنها تكره الإسلام وترمى إلى تحطيم شرائعه . وإلا فكيف يمكن أن تتزوج مسلمة من هندوسى ؟

(١) انظر ص / ١٣٧ مثلا .

(٢) فى بنجلاديش ينظر عدد غير قليل من أهل السياسة المسلمين إلى الهند بودّ ، ويعدون الخلفيات الثقافية والعادات والتقاليد فى بلادهم امتدادا لحضارة الهند (انظر مقال « بنجلاديش : هل تحاكم رئيسة الوزراء الجديدة رئيسة الوزراء القديمة بتهمة الفساد ؟ » / جريدة « الشعب » / ٢٨ يونيه ١٩٩٦م/ ٧) .

اختطاف مايا بأيام فإن المؤلفة تصورها تصويرا يبعث على الاشمئزاز ، إذ جعلتها ترتدى قبل مجيئها الملابس الفاخرة والحليّ المتلألئة ، ثم تدخل عليهما بوجه مبتسم ، أى أنها أتت للمكايدة والتشفى لا للتعزية والمواساة . وتمضى الرواية فتقول : « رأت علية بيجوم حطام الغرفة وسودهاموى نصف المشلول ، وسمعت باختطاف مايا وعبّرت عن تعاطفها وحزنها » . وسوف تقول أيها القارئ : « لقد ظلمتَ المؤلفة بارتيابك فى موقفها من المسلمين ، فها هى ذى تقول عن السيدة المسلمة إنها أبدت تعاطفها وحزنها لمصاب الأسرة الهندوسية » ، وأجيبك أن اصبر قليلا حتى تقرأ ما هو آت ، إذ تقول الرواية عقيب هذا : « وفى لحظة ما سألت كيرونموى :

ـ بودى ، أليس لكم أقارب فى الهند ؟

ـ بلى كل أقاربنا هناك تقريبا .

ـ إذن لماذا لا تلحقى بهم ؟

ـ لأن هذا بلدى .

لم تستطع علية إخفاء دهشتها من رد كيرونموى . بعد كل شىء كيف يمكن لكيرونموى أن تقول بثقة علية نفسها إن هذا بلدها » [1] . منتهى الجلافة طبعا لو كان هذا هو ما حدث . لكن هل

---

(١) ص / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

حدث ذلك فعلا؟ أقصد : هل يمكن أن يحدث الأمر فى واقع الحياة على هذا النحو ؟ هذا هو السؤال .

وقبل ذلك عندما اختُطفت مايا واستنجد أخوها بصديقه حيدر ، الذى استجاب له فى الحال وأردفه خلفه على دراجته البخارية ، وأخذا يجوبان الشوارع ويترددان على أقسام الشرطة فى رحلة مضنية بحثا عن مايا ، نجده فى اليوم التالى يسترجع أحداث الأمس ويتشكك فى كل ما فعله حيدر ، على أساس أن من الممكن ، إن لم يكن من المرجّح ، أن يكون على معرفة بمختطفى أخته والمكان الذى يخبئونها فيه . وهو يقف بوجه خاص عند تناولهما معًا العشاء فى أحد المطاعم . ولنترك الرواية تتكلم : « بينما يرقد فى الشمس يراقب القطة خطر لسورنچان فجأة أن حيدر ربما يعرف الذين خطفوا مايا ولكنه تظاهر بعكس ذلك . عندما كان يلتهم الطعام فى محل « سوبر ستار » لم يبد القلق على وجهه . على العكس تجشأ باستمتاع بعد الوجبة ودخن سيجارته ببساطة » [1] . والحمد لله أن المؤلفة اكتفت منه بأن تجشأ ودخن سيجارة ، ولم تجعله يخبط على بطنه عدة مرات رضا وحبورا .

حتى فى الاغتصاب هناك فرق : فالمسلمون يغتصبون بالسليقة ، إذ هم يفعلون ذلك كثيرا ، وهم حينما يفعلونه لا يطرف لهم جفن . إنها

---

(١) ص / ١٦٣ ـ ١٦٤ .

مسألة عادية . أليسوا وحوشا ؟ أما الهندوس فلم يقع منهم أى اغتصاب، اللهم إلا مرة واحدة يتيمة مسكينة (كدت أن أقول : وتستحق الصدقة !) ، وذلك عندما أراد سورنچان أن ينتقم لأخته . وهو، ككل شيء هندوسى فى الرواية ، اغتصاب ظريف راق . لا ، بل هو فى الحقيقة ليس اغتصابا بالمرة . ذلك أن سورنچان إنما فعل ذلك مع فتاة عاهرة (ومسلمة كما لا أحتاج أن أوضّح) . تقول تسليمة نسرين : « بالأمس فقط تحسنت صحة سودهاموى وتمكن من ممارسة النشاطات الطبيعية وانحصر الأمر فى التأوه بالألم والمعاناة طوال اليوم من فقدان مايا ، هذه الحالة المثيرة للشفقة التى لم يكن يطيق سورنچان أن يتحمل النظر إليه فيها . لابد أنهم يمزقون مايا مثل الطيور الجارحة التى تمزق فريستها . لا بد أنهم صنعوا منها وليمة . هل استمتعوا بها كما يستمتع أكلة لحوم البشر بالتهام ضحاياهم ؟ هذه الأفكار سببت آلاما رهيبة لسورنچان كما لو أنه هو الذى يتمزق تحت أسنان سبعة من الضباع »[1] . ثم يركب سورنچان عربة ركشا ويلتقط فتاة مسلمة من بنات الليل ويأخذها معه إلى البيت حيث يعرّيها ويعضها وينشب أظفاره الحادة فى مختلف أنحاء جسدها ثم يغتصبها . وبعد ذلك يأمرها بأن تغلق فمها وتخرج فورا: « فتحت شاميما الباب ووضعت قدما فى

(١) ص / ٢٠٠ .

الخارج . ترددت ثم عادت إلى سورنچان بنظرة تمتلئ بالتوسل . كان الدم يسيل من خدها وهى تقول :

ـ حتى لو كانت عشرة تاكا . أرجوك . أعطنى إياها .

اهتز جسد سورنچان بالغضب ، لكن نظرات الفتاة هدأت ثورته بعض الشىء . إنها فقيرة فى النهاية ، تبيع جسدها لتطعم فمها . إنها ضحية النظام الاجتماعى الذى تجاهل أية إمكانيات قد تكون تتمتع بها وألقى بها إلى البالوعة . ربما تريد نقود سورنچان لشراء وجبة . سحب سورنچان عشرة تاكا من جيبه وأعطاها للفتاة » [١] . ولم يستطع مع ذلك أن ينام طوال الليل بسبب تأنيب ضميره له . أرأيتم إنسانية كهذه؟ أسمعتم بمثل هذا الاغتصاب الظريف الراقى ؟ لكن ما وجه العجب ؟ ألا يكفى أن سورنچان هندوسى وليس مسلما ؟ « لو أنه استطاع فقط أن يمسح الدم من خديها قبل أن ترحل ! هل سيلتقى بها ثانية أبدا؟ إذا رآها مرة أخرى فسوف يطلب منها أن تسامحه » [٢] . يا للمسكين الرهيف القلب !

واضح مما سبق أن تسليمة نسرين قد أقبلت على كتابة روايتها وفى ذهنها الإساءة لمسلمى بنجلاديش إن لم يكن للمسلمين

(١) ص / ٢٠٤ .

(٢) ص / ٢٠٥ .

أجمعين . وقد ذكرتنى روايتها من هذه الناحية برواية الأستاذ سليمان فياض « أصوات » التى ذُكِر فى مقدمتها أنها تُرْجِمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية وتُتَرْجَم حاليا إلى الإسبانية واليونانية والدانماركية ، ورُشِّحت لنيل إحدى الجوائز الفرنسية ، مما دفعنى إلى قراءتها فور إحضار ابنى لها من عند بائع الصحف القريب من البيت، ممنيا نفسى بوجبة قصصية دسمة ، لكننى وجدتها تمضى بطيئة فاترة بلا طعم ، زيادة على أن بناءها الفنى مهلهل ولا معنى له ، إلى أن وصلت إلى الفصل الأخير ، حيث وجدت السّر فى ذلك الاحتفاء الكبير الذى حظيت به من المستشرقين لدرجة ترجمتها لعدة لغات أوروبية ، إذ تتآمر أم حامد وزوجة أخيه والماشطة وامرأتان أخريان من القرية على زوجته الفرنسية ، التى كان قد أحضرها معه فى إجازة لمصر بعد غياب سنوات طوال ، ويفاجئنها وهى تستمع إلى الموسيقى وتكتب بعض التقارير الصحفية فى حجرتها ببيت الأسرة فى القرية ، ويهجمن عليها ويكتّفنها ويحلقن لها عانتها رغم أنفها ، ثم لا يكتفين بذلك بل ... بل ماذا ؟ لعل من الأفضل ترك زينب زوجة الأخ تحكى لكم ما حدث :

« فتحتُ مصراع الباب على اتساعه لتدخل الأخريات . رطنتْ

بلغتها تحيينا أو تشتمنا ، وضحكت لها نفيسة . ونفخت سيمون مستسلمة ، وأوقفت الموسيقى بضغطة إصبع على الصندوق ، وأخذت تطبق أوراقها المفرودة على المنضدة ، واستدارت فجأة حين سمعت صوت الباب وأم خليل تغلقه .

لم تكن هناك وسيلة للتفاهم معها . أغلقت نفيسة النافذة وأحطنا بها فدرات حول نفسها باحثة عن مخرج . أمسكنا بها فصرختْ وقاومت . خفنا منها فأغلقتُ فمها بكفى وطرحناها على السجادة فى أرض الغرفة ورفعنا ذيل القميص الذى ترتديه . لم تكن تلبس تحته شيئا. وكنا نمسك بها جيدا وهى تناضل بكل ما فيها من قوة لتتخلص من ثمانية [1] أيد . وقالت نفيسة : ألم أقل لكم ؟

وراحت نفيسة تمارس مهمة تطهيرها بالمقص ثم بحلاوة العسل الأسود لتزيل القذر الذى تحمله بين فخذيها . وشهقت نفيسة وقالت لحماتى : انظرى . ألم أقل لك ؟ إنها لم تختتن .

كانت نفيسة ماتزال تكمل مهمتها بالحلاوة وسيمون ترتعد بين أيدينا. وطرحت علينا نفيسة فكرة ختانها لسيمون ، وتحمست النّسوة للفكرة ، وقالت حماتى : يا ليت . ما الذى يمنع ؟ لكن أخشى أن تفضحنا .

---

(١) الصواب : « من ثمانى أيدٍ » .

فقالت نفيسة مؤكدة : لا تخافى . لن تسمعى لها صوتا .

كانت نفيسة قد انتهت من مهمتها فأخرجت زجاجة من صدرها ونزعت غطاءها ففاحت منها رائحة البنج ، وغمست فى الزجاجة قطعة قطن أخرجتها من صدرها أيضا ثم وضعتها على أنف سيمون . رأيت فى ضوء المصباح عينيها مفتوحتين على آخرهما مليئتين بالفزع . فكرت فى أن أتركها وأدفع الكل عنها وأوقظها . تصورت نفسى فى مكانها ، لكن خطر لى أنها تبهج حامد بروحها ، وربما أيضا بجسدها (الذى يشبه الملبن بياضا وطراوة)[1] لأنها لم تختتن . وكان جسدها يسترخى تحت أيدينا ، وفمها يتوقف عن المقاومة . ويتوقف الأنين المكتوم المنبعث من أنفها ، وعيناها تنطبقان وتظلان مواربتين [2] . قلت لنفسى : إن المسألة قد بدأت وانتهى الأمر ، ولا ينبغى أن نتوقف الآن . ما حدث حدث ، وعلينا أن نتمه . فحتى لو توقفنا لن يقلل ذلك من غضب حامد . وأكّدتُ لنفسى أنه سوف يتكتم الأمر حتى لا يفضح نفسه ويفضحها .

وأخذت نفيسة تمارس مهنتها بسعادة بالغة ، والنسوة واقفات

---

(١) تصور الرواية زوجة الأخ قطة جائعة تشتهى أخا زوجها وتحترق غيرة من زوجته ، كما تصوّر زوجها الفلاح الرافل فى نعمة أخيه قطا جائعا يشتهى زوجة هذا الأخ ويغار منه . ولا يجد الفلاح وزوجته حرجاً من تبادل الاتهامات بهذا الخصوص .

(٢) كيف تكون العينان منطبقتين ومواربتين فى نفس الوقت ؟ علم ذلك عند المؤلف .

مستريحات ينظرن إلى مهمة جليلة وفى قلق وسرور شديدين . وجذبت نفيسة ذلك الشيء [١] حتى آخره بيد ، وأخرجت باليد الأخرى موسًا حادة كموس الحلاق [٢] من جيب ثوبها ، وفتحته ومسحته فى جانب ثوبها ، ثم ضغطت بجانب السلاح وجذبت حد الموس بسرعة ، فانفصل ذلك الشيء فى يدها الأخرى وتفجر دمها غزيرا . لم نر مثل هذا الدم من قبل على كثرة ما شاهدنا من طهارة للصبيان والبنات » [٣] .

وتحاول النسوة أن يكتمن الدم بكل ما تقع أيديهن عليه من قطن وقماش وبُنّ وترابِ فُرْنٍ وترابٍ أحمر ، لكن دون جدوى . ثم شمّمْنها بصلة وكولونيا (ولا أدرى لماذا لم يكتبها « كالونيا » لزوم الواقعية !) لتفيق ، فأفاقت قليلا ، ثم (كما يحدث دائما فى مثل هذه المواقف فى الأفلام والتمثيليات) « مالت برأسها جانبا دفعة واحدة ، وظلت العينان مواربتين » . يعنى بالعربى « ماتت » . قتلتها هؤلاء المتوحشات المتخلفات الجاهلات الحاقدات على كل ما هو مشرق (لا تنس أن

---

(١) انظر إلى حياء المؤلف الجم ورهافة أحاسيسه ، وكيف أنه لا يذكر اسم « ذلك الشيء » صريحا ! هكذا الأصول ، وإلا فلا !

(٢) الصواب : « موسى حادة كموسى الحلاق » .

(٣) أصوات / مكتبة الأسرة / ١٩٩٦م / ١٠٧ وما بعدها .

لحمها أبيض مثل الملبن كما قالت زوجة الأخ التى تحترق شهوة وغيرة) وكل ما هو جميل (أليست فرنساوية من بلاد بره ؟) .

لكن بالله عليك أيها القارئ أتصدق أن هذا يمكن أن يقع ؟ أيمكن أن تجرؤ أمّ وكنّتها على التآمر على هذا النحو على زوجة الابن الأوروبية ، وهى الضيفة التى لم تكن قد مكثت فى البيت إلا أيامًا معدودات لم ير أحد منها خلالها إلا كل خير ؟ ولنفرض أنهما أرادتا أن تخُدّاها ، أفما كان ممكنا أن تفاتحاها أو تفاتح الأم ابنها فى هذا الموضوع بطريقة أو بأخرى ؟ ثم ما الذى يشغلهما أصلا فى هذه المسألة ؟ أهما اللتان ستجامعانها ؟ والله إنها لمهزلة! أعرفت الآن أيها القارئ لم احتفى المستشرقون بهذه الرواية التى ذكرت لك رداءة مستواها وتفكك بنائها وفتور عقدتها فترجموها إلى كل هذه اللغات الأوروبية ؟ إنهم يريدون أن يقولوا للقارئ الغربى : انظر إلى الإسلام وما يفعله بـ « ذلك الشيء » عند البنات والنساء ! والمؤلف ، والحمد لله ، لم يقصّر فى وصف عملية الختان على النحو الذى يعجب الجمهور الغربى المتنمر لديننا . إننى لستُ من أنصار ختان الأنثى ، لكن هذا التدليس فى وصف عاداتنا وتقاليدنا شيء بشع ، فإن الأمور لا يمكن أن تقع عندنا على هذه الصورة فى مثل تلك الأحوال ، رغم تسليمنا بتخلف شعبنا فى كثير من المجالات، ومحاربتنا لكل ما هو قبيح

ومرذول فى حياتنا ، وعَمَلِنا على تنوير العقول والقلوب والضمائر لدى أبناء أمتنا .

ونعود إلى رواية تسليمة نسرين ونتساءل : أمثل هذه الرواية بعيوبها القاتلة التى سلف ذكرها وعَرْضُها تفصيلا تستحق أن توصف بالقوة والجرأة والشجاعة والسخونة ، وأن يقال فيها إنها مَثَل من الأمثلة العالية على الأدب الغاضب الذى يأخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع عن قضية من القضايا الإنسانية ، كما جاء فى مقال الأستاذ رجاء النقاش بجريدة « الأهرام » ؟ لقد تناولنا بالدراسة فى هذا الكتاب ترجمة الأستاذ عصام زكريا للرواية ووجدنا أن حكم الأستاذ النقاش عليها بالدقة والامتياز والروعة حكم مبالغ فيه كثيرا جدا . وها نحن أولاء ننتهى أيضا إلى أن حكم الأستاذ النقاش على الرواية نفسها هو حكم لا ينطبق على الواقع بأى حال : فالرواية ضعيفة ومنحازة ، وبناؤها يفتقر إلى التماسك والصلابة . وهى تعتمد فى بلوغ هدفها على الإحصاءات والتقارير المنقولة عن الصحف والكتب (بغض النظر عن صدق ذلك أو كذبه) أكثر مما تعتمد على الحوادث التى يراها القارئ بعينه ولا يسمعها مجرد سماع . كما أننا نفتقد أحد عناصر الفن القصصى الأساسية ، ألا وهو عنصر الوصف مثلما بيّنّا قبل قليل . وقد كانت جريدة « أخبار الأدب » أقرب إلى الصواب حين كتبت فى كلمتها القصيرة عن

الرواية أنها « رواية عادية من الناحية الفنية أو أقل من عادية »[١] . أما مسارعة بعض الأوروبيين إلى ترجمتها فإنها لا تعنى شيئا من الناحية الفنية ، بل كل ما فى الأمر أنهم فى الغرب يرحبون أشد الترحيب بكل ما يسىء إلى الإسلام من كتابات المنتمين إليه والمحسوبين عليه .

وتبقى المقارنة التى عقدها الأستاذ النقاش فى آخر مقاله بـ « الأهرام » بين رواية تسليمة نسرين ورواية سلمان رشدى . قال : « ولا مجال للمقارنة بين الكاتبة المسلمة « تسليمة » والكاتب « سلمان رشدى » فى روايته « آيات شيطانية » ، فالآيات الشيطانية رواية سخيفة تخوض فى أعراض المسلمين بغير ذوق ولا حق . أما رواية « العار » فكاتبتها تدافع عن المبادئ الإنسانية للإسلام ، وتدعو إلى حماية الهندوس فى بنجلاديش كما دعا غاندى الى حماية المسلمين فى الهند وقَتَله المتعصب الهندوسى عقابا له على دفاعه عن المسلمين » .

أما أن « الآيات الشيطانية » رواية سخيفة فهى فعلا كذلك وأكثر من ذلك . إنها رواية بل أربع روايات مفككة لا رابط بينها ، وهى مملوءة بالهلوسات والسمادير التى لا تدور إلا فى أذهان المخمورين المطروحين أرضا ، وفيها كمٌ هائل من البذاءات التى لا يخطر على بال

---

(١) « أخبار الأدب » / الأحد ١٤ صفر ١٤١٧ هـ - ٣٠ يونيه ١٩٩٦م / ١٣ .

أحد أن رواية من الروايات يمكن أن تحتوى عليها ، وكمٌ مثله من الكفر والتجديف فى حق الله والسخرية بالإسلام .

أما إشارة رجاء النقاش السريعة إلى خوضها فى أعراض المسلمين فتحتاج إلى بيان . ذلك أن المسلمين المشار إليهم هنا ليسوا إلا رسولنا الكريم ﷺ وزوجاته الطاهرات الشريفات .

إن « الآيات الشيطانية » هى فى الواقع أربع روايات وليست رواية واحدة ، وإن حاول كاتبها أن يوجد صلة تربط بينها . وإحدى هذه الروايات تدور فى الهند ، والثانية فى مكة والمدينة أيام الرسول ﷺ ، والثالثة فى بريطانيا المعاصرة ، والرابعة فى إيران . وهى روايات عسرة القراءة إلى حد مزعج ومنفّر . وما زلت حتى الآن أذكر الضيق والمعاناة الشديدة التى كان علىّ أن أقاسيها وأنا أقرؤها بغية عمل دراسة عنها عقب صدورها . لقد كنت أحسّ أننى آكل نشارة خشب!

وقد أفردت فى تلك الدراسة فصلا خاصًا بالبذاءات والقاذورات التى يطفح بها الكتاب ، وهو فصل طويل يقع فى نحو خمسين صفحة ، واقترحتُ فيه تسمية المذهب الفنى المقزز الذى اتبعه سلمان رشدى فى « الآيات الشيطانية » بـ « الخُرْئية »[1] ، بصيغة

(١) ترجمةً للمصطلح الطبى والأدبى " scatology / scatologie ".

المصدر الصناعى كالواقعية والرومانسية والطبيعية والرمزية ... إلخ . وفى هذا الفصل نفضت كل ما فى كتاب رشدى ، أو بالحرى برميل البول والبَراز وسائر الفضلات والعفونات والنتانات المسمى بـ « الآيات الشيطانية » ، تحت بصر القراء ليعرفوا بأنفسهم مقدار الصديد والقيح الذى يملأ عقل وقلب ذلك الكاتب الشاذ المريض : فمن شتائم مقذعة كـ « ابن الزانية » ، التى لا يفلت منها حتى أبو الأنبياء عليه السلام ، و « القحبة » و « المنيو .. » و « ابن المنيو .. » إلى « الخرا » و « الطيـ .. » ، إلى التجنى على عِرْض الرسول الكريم متمثلا فى زوجاته النبيلات اللائى لم يتورع هذا النَّذل عن الإساءة إليهن دون أى سبب سوى شذوذه ومرضه وحقارته ، إذ اخترع فى الرواية الثانية من رواياته الأربع (وعنوانها « الجاهلية ») ماخوراً سمّاه « ماخور الحجاب » يضم اثنتى عشرة مومسًا كل واحدة منهن تحمل اسم إحدى أمهات المؤمنين وتتصف بصفاتها الجسدية والعقلية والنفسية ، غير مستثن من ذلك ولا أم المؤمنين زينب بنت خزيمة ، التى ماتت فى حياة الرسول ﷺ ، فقد جعل المومسَ التى تحمل اسمها، كلما دخل عليها أحد رواد الماخور ليمارس الجنس معها ، تتصلّب وتتخشّب كأنها جثة هامدة (إشارة إلى أنها قد ماتت ، كما قلت ، فى حياته عليه السلام) ، وذلك إرضاءً لرواد الماخور المصابين بمرض

النكروفيليا (أى اشتهاء مضاجعة الموتى) ، فضلا عن الغمز واللمز فى حق الصِّدّيقة بنت الصديق بالتلميح لحادثة الإفك ، التى يكفى لتبرئتها مما خاض فيه المنافقون أثناءها أنها عاشت بعده ﷺ عشرات السنين لم تثُر حولها أية ريبة رغم أنه قد مات عنها وهى فى قمة شبابها وجمالها، وظلت إلى آخر حياتها المديدة المباركة لم تتزوج ، لأن القرآن الكريم قد حرّم عليها وعلى سائر أمهات المؤمنين الزواج بعده عليه الصلاة والسلام.

ليس ذلك فقط ، بل يصور فى مشهد من المشاهد رسولنا الكريم ﷺ نائما فى الفراش فى بيت هند زوجة أبى سمبل (يقصد هندا بنت عتبة زوجة أبى سفيان) . وكانت هند قد التقطته ، كما يدعى هذا الأفاق ، من شوارع الجاهلية كالسكران ، فأخذت تطعمه قطع الشمام فى فمه ثم تمد يدها من طوق جلبابه وتداعبه فى صدره ...إلى آخر هذا التجديف الوقح الذى باركته أوروبا وهبت تدافع عنه بحجة الدفاع عن حرية التعبير [1] ، على حين يقدمون رجاء جارودى هذه الأيام للمحاكمة التى من الممكن أن تنتهى بسجنه لا لشىء إلا لأنه كتب

(١) عالجتُ كل ما يتعلق برواية « الآيات الشيطانية » فى كتاب مستقل بعنوان « ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية » (توزيع دار النهضة المصرية ودار زهراء الشرق بالقاهرة) .

دراسة تاريخية تعرّض فيها بالتمحيص لدعوى أفران الغاز التى يقال إن هتلر كان يحرق اليهود الألمان فيها ، وقدّم الأدلة العلمية القاطعة على أن هذه الدعوى لا تنهض على أى أساس .